

ضوء مبدع على مأساة شهيرة

٢- هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

فقرينة الاختفاء كما يشرها الدعاء المبرور

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقد رأينا فيما تقدم أن الدعاء الملاحدة، أعني حمزة بن علي وصحبه، ألفوا في اختفاء الحاكم فرصة لأذكار الدعوة وتغذيتها، واتخذوا من هذه الاختفاء وظروفه الغامضة، مستقى جديدا للزعم والارجاف؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عند ما تحل الساعة فيملا الأرض عدلا، وأضحى هذا الزعم أصلا مقررأ من أصول مذهبهم. وقد انتهت إلينا في هذا الزعم - أي زعم الغيبة والرجعة، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاء حمزة بن علي ذاته، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه، وإليك ما جاء في تلك الوثيقة الهامة التي تقدم رغم غرابة شروحه ومزاعمها إلى المؤرخ مادة للتأمل:

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان: «نسخة السجل الذي وجد معلقاً على المشاهد في غيبة مولانا الامام الحاكم، وهي التي يفتح بها رسائله في متن الدعوة وأصولها حسباً أشرنا فيما تقدم ويؤرخ الداعي هذه الرسالة بشهر ذي القعدة سنة ٤١١ هـ، أعني عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتحها بدعوة الناس إلى المبادرة «بالنوبة إلى الله تعالى وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته في أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين، وأنه قد سبق إليكم، أعني إلى الناس، من الوعد والوعظ والوعيد من ولي أمركم وامام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة بارئكم وخليفته، الشاهد عليكم بمواقفكم، وجميع ما اقترعتم فيه من الأعداء والانداز، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع وامتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذي كنتم به توعدون،

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ولم يفر عليهم

وقد التفت المتغنى إلى شرقي الأمباطورية الإسلامية المترامية فقال: أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كبروا الكنوز فابقين ولا بقوا؟ من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى لخواه لحد ضيق والتفت إلى غريبها فقال:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصراع؟ تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتنبع إنما كان أدباء العربية إذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشروور مجتمعه، يجدون مفزعهم من الحزن والقنوط في «الفضيلة الاجتماعية»: في الأخلاق القويمة التي تكسب الإنسان حسن الاحدوثة الموروث حبيها عن العرب الأقدمين، وتنجيه من شروور المجتمع الذي لا يده له بإصلاحه، والذي لا تنال شرووره عادة إلا من يستهدف لها بسوء فعله، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار. ومن ثم زخر الأدب العربي بروائع الحكم ونيل القدح بمكارم الأخلاق، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربي وبه يمتاز على غيره، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول لياس بن القائف:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتبابها فقدت صديق والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر مادمتها معا كفى بالميات فرقة وتنايها
وقول الشريف:

لغير العلا منى القلي والتجنب
ولولا العلا ما كنت في العيش أرغب
غرائب آداب حبانى. بحفظها

زمانى، وصرف الدهر نعم المؤدب
فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب إلى الاجتماع، وفضيلة اجتماعية أصيلة، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون. وأن يكونوا أمة مصلحة، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معاً، ويستغلون بمتمعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها، وطول التشكك والتحير في منشأ الكون ومنتهاه، وميلهم الطبيعي ذاك واضح الأثر في شعر شعرائهم. وفضيلتهم الاجتماعية تلك هي مرجع ازدهار العمران في كل بلد وطوئه، حالما وطوئه، على حين نشر الأغريق الخراب في شرقي البحر الأبيض حين هبطوه، واستغزقوا قروناً طويلة في الاستقرار وتشرب الحضارة؟

فخرى أبو العمد

في الحلال والحرام والقضايا والأحكام ... وأمدكم بالأوراق والدواة والخبر والأقلام، لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون ...

ثم يقول حمزة بعد أن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو - إنهم - أي الناس، لم يزدادوا إلا ضلالاً وأثماً، وتماذوا في غيهم وفجورهم؛ وينعى على الناس هذه النازلة الآلئية ويحذرونهم من عواقبها، ثم يقول مشيراً إلى اختفاء الحاكم: « فقد غضب الله تعالى وولى أمير المؤمنين سلام الله عليه من عظم إسراف الكافة أجمعين، ولذلك خرج من أوساطكم، قال الله ذو الجلال والإكرام: « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »، وعلامة سخط ولى الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى. فمن دلائل غضب الإمام غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ومنعه عن الكافة سلامه، وقد كان يخرج إليهم من حضرته ومنعهم لهم عن الجلوس على مصاطب سقايف حرمة، وامتناعه عن الصلاة بهم في الأعياد وفي شهر رمضان، ومنعه المؤذنين أن يسلبوا عليه وقت الأذان ولا يذكرونه، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب. وإنهاؤهم جميعهم من التزجل عن ظهور الدواب، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه، وركوبه الأتان، ومنعه أوليائه وعبيده الركوب معه حسب العادة في موكب، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم، وهم عن جميع ذلك في غمرة ساهون ...

ومن ثم « فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى، يخوضون ويلعبون في التيه والعمى الذى آثروه على الهدى،

ويختتم الداعي رسالته الغريبة بتكرار الدعوة إلى التوبة والاستغفار، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم إلى الطريق التي سلكها أمير المؤمنين « وقت أن استتر، وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم، وأن يظهر وأقربهم، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين، وأن يتوسلوا إليه بالصفح والمغفرة. وأن يرحمهم بعودة ولىه إليهم ... » والحدار الحذار أن يقف أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً، ولا تبرحوا في طريق يتوسل

شيئاً منها، ولم يبخل عليهم بجزيل عطائه، ولم يشاركهم في شيء من أحوال هذه الدنيا « نزاهة عنها، ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته لأمر سبق في حكمته، وهو سلام الله عليه اعلم به، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ما لم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم ... ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأئبى؛ بل منته منه عليكم ولطفابكم ورأفة ورحمة واختياراً ليلوكم أيكم أحسن عملاً، ولتعرفوا قدر ما خصكم به في عصره من نعمته وحسن منته وجميل لطفه وإحسانه. وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم،

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم من الذهب والفضة والخيل المسومة والأقطاء والضياع، ورفعهم إلى ذرى المراتب وشرفهم بأرفع الألقاب، حتى غدوا سادة يحكمون ويظاعون، وغاشوا في نعماء ورغد، فأقبلوا على الدنيا واعتزوا بها، وظنوا أنها سبيل الفوز في الآخرة، وتظاهروا بالطاعة في حين أنهم متمسكون بالمعصية؛ ثم يقول الداعي:

« ثم من نعمه الباطنة عليكم إحياءه لسنن الاسلام والايمان، التي هي الدين عند الله وبه شرقت وطهرتم في عصره على جميع انساب والأديان، ومزيت من عبدة الأوثان وابانهم عنكم بالنزلة والحرمان وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم ... وانقادت الذمة إليكم طوعاً وكرهاً فدخلوا في دين الله أفواجا؛ وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها، وأقام الصلاة في أوقاتها والزكاة في حقها وواجباتها، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام، وأقام دعائم الاسلام، وفتح بيوت أمواله، وأنفق في سبيله، وخفر الحاج بعساكره، وحفر الآبار، وآمن السبيل والأقطار، وعمر السقايات، وأخرج على الكافة السدقات، وستر العورات، وترك الظلمات، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم

والواجبات، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً، وفتح لكم أبواب دعوته، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليحكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام، فثبتتم العلم والحكمة وكفرتكم الفضل والنعمة، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنو إسرائيل في قصة موسى عليه السلام، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام، وغلق باب دعوته وأظهر لكم الحكمة وفتح لكم خارج قصره دار علم حوت من جميع علوم الدين وآدابه وفقه الكتاب

جميعكم... فاذا أطلت عليكم الرحمة خرج ولي الله أمامكم باختياره راضياً عنكم، حاضراً في أوساطكم، فواظبوا على ذلك ليل نهار قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة، وقد أعذر من أنذر... الخ.

ويؤرخ الداعي رسالته بذي القعدة سنة إحدى عشر وأربعمائة، وينعت نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها (١).

وهذا السجل يعتبر وثيقة مذهبة، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها، وما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى، وإذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعي يصدر فيه عن إيمان حقيقي، فإنه ينم على الأقل عن براعة الداعي في عرض ما يريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مذهبة، هذا إلى أن هذا السجل، يعتبر وثيقة تاريخية هامة بما يقدمه إلينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة في بادئ عهده ثم في خاتمه. على أنه ما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الإسلامية والنصرانية، المعاصرة والمتأخرة، لا تشير أية إشارة إلى هذا السجل، الذي يقول لنا الداعي إنه وجد معلقاً على المشاهد، ولو وقعت مثل هذه العلانية في إذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الإشارة إليها، ولعل الدعاة حاولوا إذاعته فلم يفلحوا، وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة عقب مصرع الحاكم كما رأينا فلاذوا بالاختفاء والاستتار. وأصدر الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ولد الحاكم سجله الشهير الذي يتبرأ فيه من هذه المزاعم الخارقة التي قيلت في أبيه وفي أسلافه، وفيه يعلن اعترافه إلى الله، بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتداراً ومربوبون اقتساراً، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى، وأن جميع من خرج منهم عن حد الأمانة والعبودية لله عز وجل، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ وأنه قدم إنذاره لهم بالتوبة إلى الله من كفرهم، فن أصر فسيف الحق يستأصله.

وإلى جانب هذه الوثيقة التي كتبها حمزة بن علي عقب اختفاء

الحاكم. والتي يحاول فيها أن يعلل هذا الاختفاء وأن يشرح بواعثه، وأن يطعن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة أخرى عنوانها الغيبة، تمس نفس الموضوع من ناحية أخرى، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أشهر عن لسان قائم الزمان (أي الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول، والظاهر أن كاتبها هو المقتنى أحداً كبير الدعاة وأحد الحدود الخمسة: وقد وجهت إلى أهل الشام خاصة، وفيها يذكرون قائم الزمان بالعهد الذي قطعوه، ويحذرون من الدجال الذي يزعم أن الألوهية انتقلت إليه، والذي عاند الموحدين وحاصرهم، ويقول إن الدين لا يصح إلا عند الامتحان، ثم يخاطب الموحدين بقوله: «معشر الموحدين، إذا كنتم تتحققون أن مولاكم لا تخلو الدار منه وقد عدته أبصاركم... وإذا فسدت المعدة ضرت البصر؛ فهكذا إذا كانت المادة واصله إلى النفوس الصحيحة، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً، وإذا كانت المادة من فعل الآباسة ومادة النطق والانس وشرائعهم فيفسد النظر وما ينظر إلا بشر» وعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود سبحانه ونزعه عن الحد والمحدود أن قائم زمانكم يطالبكم، وقد شهدتم في موافيقكم بعضكم على بعض بما شرطتموه على نفوسكم...» ثم يشير إلى أن كثيراً من الموحدين ارتدوا عما كانوا أقروا به وهو الاعتراف بألوهيته، ويحذرون من سلوك هذا الطريق؛ ويشير إلى الدجال، ويقول إنه قتل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم؛ وأن المولى غنى عن عبادتهم، وإنما هي أعمالهم ترد عليهم.

ثم يقول: «ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه.. معشر الاخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم».

ويلوح لنا أن هذا الدجال، المشار إليه في هذه الرسالة إنما هو عبد الرحيم بن الياس ولي العهد، وإلى الشام؛ فقد اشتد في مطاردة الدعاة، حينما ظهرت دعوتهم بالشام، وقتل بكثير من أتباعهم وأنصارهم، وهو ما تشير إليه الرسالة.

(القول منوع — للبحث بقية) محمد عبد الله هنان

(١) وردت هذه الرسالة في المجموعة المحفوظة بدار الكتب برقم ٢٤ عقائد النحل: والمجموعة المحفوظة برقم ٢٠ عقائد النحل مع شرح لها.

(١) لم ترد هذه الرسالة في مجموعة دار الكتب والتي لدينا منها نسخة تدورافية (وهي محفوظات برقم ١٢٢ عقائد النحل) إذ ينقصها من أولها عدة أوراق ولا يمكنها ورودت في مخطوط باريس، وبه لحنا ونقلنا ما تقدم، ثم وفقاً أخيراً إلى الحصول على نصها الكامل.